

قراءة في كتاب

تاريخ العمل النقابي بالمغرب (المكتب الشريف للفوسفات نموذجا)

يوسف الإدريسي

إعلامي وفاعل مدني.

22 أكتوبر 2026





أصدر الباحث عبد الرحيم بودلال مؤخرًا، عن دار الإحياء للنشر والتوزيع (الطبعة الأولى 2026)، مؤلفًا موسومًا بـ (سوسيولوجيا العمل النقابي بالمغرب: المكتب الشريف للفوسفاط نموذجا)، في 154 صفحة من القطع المتوسط. يعالج هذا العمل البحثي التاريخ الاجتماعي وسوسيولوجيا الفعل النقابي بالمغرب عامة، وداخل المجمع الشريف للفوسفاط بوجه خاص، باعتباره رافعة استراتيجية للاقتصاد الوطني، راصدا دينامية الشراكة الاجتماعية بين الإدارة والفرقاء الاجتماعيين. تكمن القيمة المضافة للكتاب في كونه وثيقة تحليلية وتوثيقية تسعى إلى صيانة الذاكرة الفوسفاطية ونقلها من حيز التوصيف التقني-الاقتصادي الجاف إلى مساءلة البعد الإنساني والاجتماعي، عبر رصد مسارات النضال ومنعطفات الحوار الاجتماعي وتأثير المتغيرات السياسية الوطنية في الحقل القطاعي.

يتوزع الكتاب على تقديم عام، وسبعة محاور موضوعاتية، وخاتمة وملاحق توثيقية:

— المحور الأول: رصد المنهج العلمي الذي زواج فيه الباحث بين الدراسة الميدانية وتقنية المقابلة والرواية الشفهية.

— المحور الثاني: تشخيص واقع الدراسات الأكاديمية السابقة، مع إبراز شح الأبحاث الرصينة التي قاربت الحقل النقابي الفوسفاطي برؤية سوسيولوجية متخصصة.

— المحور الثالث: استعراض النظريات السوسيولوجية التي راهنت على الطبقة العاملة كقاطرة للتحويل المجتمعي.

— المحور الرابع: سياقات نشأة الحركة النقابية المغربية وتوصيف طبيعتها الاجتماعية.

— المحور الخامس: تفكيك جدلية السياسي والنقابي، ورصد موقف الحركة الوطنية ومنظريها من الفعل العمالي.

— المحور السادس: سوسيولوجيا العمل النقابي بالمكتب الشريف للفوسفاط والظروف الموضوعية لميلاده.

— المحور السابع: قراءة كرونولوجية لتطور أبرز الملفات والمطالب الاجتماعية بالقطاع.

في تناوله لطبيعة الطبقة العاملة وسياقات التشكل انطلق الباحث من استقراء النظريات السوسيولوجية التي بحثت في أدوار الطبقة العاملة أثناء الانتقال من البنيات التقليدية الإقطاعية إلى المجتمعات الصناعية الحديثة، مستحضرا الرهان الماركسي ومسقطا تلك المحددات النظرية على الواقع المغربي. وفي هذا الصدد، يقف التحليل عند نشأة التنظيم النقابي إبان الحقبة الاستعمارية، مسائلًا حدود التفاعل بين النضال الاجتماعي والمشروع السياسي للحركة الوطنية (لا سيما أطروحات علال الفاسي)، وكيف ساهم العمل النقابي في صقل الوعي الجمعي والتمهيد لمعركة التحرير وبناء صرح الدولة الوطنية.

تاريخ العمل النقابي بالمغرب (المكتب الشريف للفوسفاط نموذجا)

ولمقاربة عوامل تشكل الطبقة العاملة وعلاقتها المركبة بالطبقتين الوسطى والبورجوازية، استند الكاتب إلى رصيد نظري وازن من أعمال باحثين ومفكرين من قبيل روبير مونتاني، وعبد الرحمن المالكي، وعزمي بشارة، ومحمد عابد الجابري، وجرمان عياش، وصامويل هنتنغتون.

غير أن الباحث يكشف بجلاء أن الشروط التاريخية لولادة الطبقة العمالية المغربية ظلت مرتبطة لخصوصيات البنية الاقتصادية الكولونيالية الموجهة حصرا لخدمة مصالح المركز الاستعماري؛ حيث وجد العامل المغربي نفسه محاصرا في خانة الأعمال الشاقة واليدوية دون اعتراف مهني أو حقوقي. هذا التأسيس المزدوج بين إرث الهيمنة الاستعمارية وإكراهات بناء الدولة المستقلة، أفرز علاقات اندماج متفاوتة قيدت الفاعلية السياسية والاجتماعية للبروليتاريا، وأعاق الانتقال السلس للعمل النقابي نحو أفق اقتصادي وطني تحرري.

أما إرهابات الميلاذ ومسارات التحول النقابي فالتأريخ الفعلي لنشوء العمل النقابي بالمغرب يعود بحسب المؤلف، إلى سنة 1920، ولم تدق ساعته داخل قطاع الفوسفاط إلا بحلول عام 1933 (أي بعد 13 سنة من انطلاق نشاط المؤسسة). والمفارقة هنا تكمن في أن بدايات التنظيم ظلت حكرا على الأطر والعمال الفرنسيين تماشيا مع السياسة الكولونيالية القائمة على الاحتواء والإقصاء الممنهج لليد العاملة المغربية.

لكن التحولات الجيوسياسية التي أعقبت الحرب العالمية الثانية، وتنامي المد المطليبي، أرغمت الإدارة الاستعمارية بدءا من سنة 1945 على تشريع مشاركة العمال المغاربة ضمن أطر مؤطرة ومراقبة؛ فتأسست أول نواة نقابية مغربية تحت مظلة اتحاد نقابات الكونفدرالية العامة للشغل (CGT) والتي برز ضمن ممثلها الثمانية المنتخبين اسم لحسن بن لمعطي كصوت عمالي فوسفاتي، مشكلا بذلك انعطافة مفصلية نحو توطين الفعل النقابي واسترداد هويته الوطنية.

ومن زاوية التحليل السوسيولوجي لمرحلة ما بعد الاستقلال، سلط الكاتب الضوء على حمأة الصراعات التنظيمية والأيديولوجية وجدلية الحقلين الحزبي والنقابي، متوقفا عند مخاض تأسيس النقابة الوطنية لعمال الفوسفاط بخريبكة، ومحددات علاقتها بكل من الاتحاد المغربي للشغل (UMT) وحزب الاتحاد الاشتراكي للقوات الشعبية.

لكل ذلك، فالانتقال من نمط الإنتاج القديم إلى نمط الإنتاج الرأسمالي المعاصر حول الفئات الكادحة إلى فاعل جمعي منظم داخل الفضاء العمومي؛ حيث أضحت النقابات وسيطا استراتيجيا يعيد تشكيل علاقات الإنتاج ويناهض الاستغلال لتحقيق العدالة الاجتماعية. هذا التحول مكن العامل من مغادرة موقع الخضوع السلبي إلى رحاب الفاعل المؤثر في السياسات العمومية. غير أن المجتمعات التي تعاني من هشاشة التصنيع غالبا ما تصطدم فيها التجربة النقابية بطغيان الولاءات التقليدية (القبلية والجهوية)، الأمر الذي يضعف الحس الطبقي ويعيق التحديث؛ وهو ما لخصه المفكر محمد عابد الجابري بكون العمل النقابي المغربي عانى بنيويا جراء هشاشة الاقتصاد، وثقل التدين التقليدي، وطبيعة السلطة التنفيذية المركزية.

وفيما يخص مركزية التجربة الفوسفاطية في الحوار الاجتماعي، فيمكن القول بأن دراسة التجربة النقابية في قطاع الفوسفاط تكتسي راهنية بالغة؛ لكونها تشكل النواة الصلبة للحركة النقابية الوطنية بفعل الكتلة العددية الكبرى لعمال القطاع، ومكانته المحورية كشريان استراتيجي لتمويل السياسات العمومية للدولة.



وقد رصد المؤلف تطور الوعي العمالي عبر محور خريبكة-الجرف الأصفر، متتبعا مسار التحول من منطق النزاع والمواجهة المباشرة إلى خيار المؤسسة والشراكة الاجتماعية؛ إذ تدرج الفعل النقابي الفوسفاتي عبر محطات كبرى:

- مرحلة مناهضة الاستعمار ومقاومة التهميش.
- مرحلة الهيمنة الحزبية والتبعية التنظيمية في فجر الاستقلال.
- مرحلة التأسيس الأيديولوجي واستقلالية القرار، والتي بلغت أوج المواجهة مع السلطة خلال عقدي الثمانينات والتسعينات.
- مرحلة المؤسسة التشاركية مع مطلع الألفية الحالية في عهد الملك محمد السادس، والتي تكرست عبر مدونة الشغل (2004) ومواثيق التعاقد الاجتماعي التي مرت من مرحلة التشاور فالحوار ميثاق الشراكة الذي جعل من الحوار آلية معيارية لتدبير الملفات المهنية داخل المؤسسة.

وإن كان لابد من رصد أفق الخلاصات فإن صفوة القول في هذا المقام هو أن كتاب عبد الرحيم بودلال وضع اليد على مفصل الذاكرة العمالية الوطنية عبر بوابتها الفوسفاطية التي تمتد لقرن كامل من التراكمات. وتظهر القراءة النقدية أن المنعطف المفصلي الذي شهده المجمع مع تحوله إلى شركة مساهمة (OCP S.A) سنة 2008، بإشراف الرئيس المدير (PDG) مصطفى التراب، أسس لشروط حوار اجتماعي تعاقدية عزز المردودية الاقتصادية للمؤسسة، وانعكس نوعيا على الدخل الفردي والمكتسبات المهنية والاجتماعية للشغيلة الفوسفاطية. وحتى لا يبقى التاريخ العمالي مجرد سرد كرونولوجي، فإن هذا الإصدار يعيد كذلك الاعتبار للرأسمال البشري بوصفه المحرك الحقيقي لعجلة الإنتاج، مؤكدا أن أي تنمية حقيقية تظل معلقة بمدى ديمقراطية العلاقات المهنية وصيانة كرامة الشغيلة أولا وأخيرا.